مجلة آفاق علمية ISSN: 1112-9336
المجلد: 12 العدد: 03 السنة 2020 ص 213 - 229

تاريخ الإرسال: 2020/01/01 تاريخ القبول: 2020/04/06
تاريخ النشر: 2020/07/02

فهم الوحي القرآني من السلفية إلى العلمية
- نصر حامد أبو زيد أنموذجا-

The Perception of the Quranic Revelation from Salafi to Scientific
Nasser Hamed Abou Zayd as a Sample

مرابطي فيطمة زهرة، بن شريف محمد
جامعة ابن خلدون تيارت، merabtifatimazohra98@gmail.com
جامعة ابن خلدون تيارت، benmoha14@yahoo.fr

الملخص:

يعد الراحل المصري نصر حامد أبو زيد من المفكرين الحداثيين الذين سعوا إلى فهم الوحي القرآني، وطرح الإشكالات المعرفية المستمرة والمتلازمة مع تأويله، فكان أن ميّز بين تيارين الأول سلفي رجعي والثاني تجديدي، هذا الأخير الذي رأى فيه ضرورة استناده إلى الوعي العلمي وإلاّ سيكون أكثر خطورة من نظيره السلفي.

والإشكالية التي تطرحها هذه الدراسة تخص كيفية انتقال نصر أثناء اشتغاله على الوحي القرآني من انتقاده للسلفية نحو تأسيس للعلمية.

الكلمات المفتاحية: نصر حامد أبو زيد، الوحي، السلفية، العلمية، العقل.

Abstract:

NASSER HAMED ABOU ZAYD was considered as one of the modern intellectuals who tended to understand the Quranic revelation , and deducted the frequent scientific issues which were going hand in hand with its iterpretation , thus he distinguished between two streams represented in ancient Salafi

at hand and modernist Salafi at the other hand ,this latter that he saw as a nessecity to be supported by the scientific consciousness otherwise it would be more dangerous than the previous one .

And the problematic that is asked in this study focuses on the way NASSER switched from criticizing the Salafi moving up to establish the scientific one .

1.مقدمة:

حظي الخطاب القرآني بعناية الفهم والقراءة من طرف المفكرين والدارسين الحداثيين، فكان أن قُرِأ وفق مناهج وقراءات مختلفة، يحاول رواد كل قراءة إضفاء الشرعية على قراءته، ومن بينها نجد قراءة الخطاب القرآني وفق المنهج العلمي، حيث يدعي أصحاب هذا المنهج تقديم الجديد في مقابل المنهج السلفي الذي تشكل في الفكر الديني المعاصر مكتفيا بتكرار ما قدمه الأوائل وتحكيمه على الواقع، ومن بين ممثليه نجد نصر حامد أبو زيد من أبرز المفكرين الذين يدعون إلى الوعي العلمي بالتراث عامة والخطاب القرآني خصوصا، والأسئلة الجديرة بالذكر بهذا الصدد، هي:

-ما المقصود بالقراءة السلفية والقراءة العلمية؟

-ما الذي تزعم القراءة العلمية أن تقدمه في خدمة الوحي القرآني وفهمه؟

وللإجابة على هذه الإشكالات سنتناول مفهوم السلفية والعلمية والمقصود بالسلفية هنا هي المنهج لا الفرقة، ثم الشروط التي وضعها نصر للتحقيق الوعي العلمي، لنصل في الأخير إلى مدى نجاعة العلمية التي يسعى نصر من خلالها تأويل الخطاب القرآني مستعينا بالمنهج الوصفي من خلال الاستناد إلى آليتي الوصف والتحليل من أجل التوصل إلى الغاية المنشودة من هذه الورقة البحثية.

2. مفهوم السلفية: يعرف الباحثون والدارسون السلفية تعريفات كثيرة؛ حيث يجمع لنا نصر حامد أبو زيد العديد منها ويقتصر في تعريفات المقدمة بأنها منهج يعتمد عليه في فهم الخطاب القرآني، وعليه فهي كالآتي:

يعرفها "أدونيس"[1] بأنّها: «امتداد لما سميته بالثبات من افتراض الكمال في المعرفة بالنص والنقل بحيث لا يعود للحداثة معنى في لغة حققت إبداعها الأكمل الذي يمكن تجاوزه، ولهذا تنتفي الحاجة إلى الفكر الآخر وإلى الابتداع معاً، وما يحتاج إليه المجتمع هو إذن، بحسب هذه النظرة، جعل الماضي حاضرا باستمرار»[2]، ولعل ما يلفت الانتباه في هذا التعريف هو رفض السلفيين لأي تجديد وتفضيلهم البقاء في الماضي واستمراره في المستقبل دون أي تغيير.

ويرى "أحميدة النيفر"[3] في تحديد مفهوم المنهج السلفي بأنه: «التيار الذي يطلق عليه تسمية المنهج التراثي لأن المؤول يتحرك ضمن الموروث اللغوي والفقهي والتفسيري والعقائدي، حيث يخضع لمنهج يجعل اللغة والتراث (يفكران) من خلاله وليس العكس، إنه المنهج الذي يعيد إنتاج المعرفة نفسها، والفهم للنص نفسه وكأن الوحي ضبطت دلالته نهائيا»[4]، يتضح من هذا التعريف أنّ أصحاب هذا المنهج لا يقدمون الجديد خاصة وأن الوحي القرآني صالح لكل زمان ومكان، فهم يكتفون بالدلالة الأولى التي توصل إليها الأوائل.

ويقترب إلى التعريف السابق تعريف "الذهبي"[5] الذي يعتبر المنهج السلفي«ذلك الفهم القديم الذي يستند إلى حرفية النص كما هو الحال مع الطريقة التقليدية التي أخذت تتشبث بمسلك التبرير كلما تراءى أمامها أثر من آثار عجز الفهم الحرفي عن مطابقة الواقع أو الموافقة معه»[6]، لا يكتفي الذهبي في هذا التعريف بعرض المقصود من المنهج السلفي بل تجاوز ذلك إلى أن لفت الانتباه إلى

المأزق الذي قد يقع فيه رواد هذا المنهج من عدم مطابقة الفهم القديم للوحي مع الواقع الحالي.

بينما يعرفها "الجابري"[7] على أنها التيار الذي «انشغل أكثر من غيره بالتراث وإحيائه واستثماره في إطار قراءة إيديولوجية سافرة، أساسها إسقاط صورة المستقبل المنشود، المستقبل الأيديولوجي على الماضي، ثم البرهنة انطلاقا من عملية الإسقاط هذه، على أن ما تم في الماضي يمكن تحقيقه في المستقبل»[8]، وكأن الدور الذي يقدمه السلفيون إصلاحي ومن خلاله يعودون بالدين إلى أصوله الأولى ولكن تحت إطار أيديولوجي.

أما "نصر حامد أبو زيد" فهو يعتبره ذلك المنهج الذي يرى أصحابه «أنّ خلاصنا الحقيقي يتمثل في العودة إلى الإسلام بتطبيق أحكامه وتحكيمه في حياتنا كلها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وصولا إلى أصغر التفاصيل في حياة الفرد والجماعة»[9]، هذا المفهوم الذي يقدمه نصر يعتبر مفهوما عاما يوضح كيف يتعامل أصحاب هذا المنهج مع الواقع ككل.

إلاّ أنه ما يُؤخذ على هذا المنهج حسب "نصر حامد" أنّ فيه تجاهل للواقع، وهذا ما يعبر عنه في كذا من موضع نذكر منها على سبيل المثال اعتباره للقراءة السلفية من أحد أنماط التفكير فهي تمثل «نمط الثبات والتثبيت والدفاع عن الماضي والتشبث بقيمه وأعرافه مهما كانت النتائج التي يفضي إليها ذلك من تزييف الحاضر وسد طريقنا أمام المستقبل»[10]، وعليه فإنّ توقف أصحاب هذا المنهج عند المقاصد المتوصل إليه زمن النزول سيغلق باب الاجتهاد والتقدم نحو المستقبل.

بينما يعبر "اليامين بن تومي"[11] عن الخلل الذي وقع فيه السلفيون حسب "نصر" بقوله: «تجميدهم لزمنية النص وكأنّ الحركة تمتد من النص إلى الأزمان بمعنى أن النص هو الذي يجذب الأزمان، وهنا يفقد النص خاصية التطور اللغوي،

وبالتالي إهدار البعد الاجتماعي للغة من كون اللغة متغيرة في منطوق الجماعة»[12]، حسب هذا الرأي فإنّ السلف لا يأخذون الواقع المعاصر بعين الاعتبار وتناسيهم لظاهرة تطور اللغة وتغير فهمها من واقع إلى آخر فواقع التنزيل غير واقعنا المعاصر.

2.2 مفهوم العلمية: ظهرت القراءة العلمية للوحي القرآني عند نصر حامد أبو زيد في الوقت الذي طغت فيه القراءات السلفية للخطاب الديني عموما على الفكر العربي، فراح يؤسس لمنهج علمي يُفهم من خلاله الخطاب القرآني ويُتوصل إلى دلالته التي تتواقف مع روح العصر، وعليه يرى كوكبة من العلماء في تعريف المنهج العلمي كالآتي:

يعرفها "سعيد النكر" بأنّها القراءة التي تقوم «بإخضاع النص القرآني كنص أدبي ولغوي إلى المناهج الأدبية والأساليب النقدية في الدرس والتحليل من أجل تكوين وعي علمي نقدي بالتراث وبالنص القرآني كنص محوري فيه»[13]، ويتضح لنا من هذا التعريف أن سعي المفكر إلى قراءة الوحي القرآني قراءة أدبية واعتباره نصا محوريا هي الكفيلة بتحقيق الوحي العلمي بعيدا عن أي توجيه أيديولوجي.

بينما يقترح الجابري هو الآخر الطريقة العلمية للتعامل مع التراث الإسلامي ويراها تتميز «باعتمادها الموضوعية أي أنّها تحقق قدرا كافيا من المسافة بين الذات، والموضوع يسمح برؤية الأشياء كما هي، دون تأثير من عواطفنا ورغباتنا، مما يفسح المجال لقيام رأي مشترك بيننا حولها»[14]، فهو يشترط أمران أساسيان لا غيرهما حتى تتحقق العلمية وهما الموضوعية والمقبولية.

وهو يعني بهما أيضا أنّ: «الموضوعية جعل التراث معاصراً لنفسه، الشيء الذي يقتضي فصله عنا، وبالمقابل تعني بالمعقولية جعله معاصراً لنا أي إعادة وصله بنا»[15]، فالموضوعية هي المراد الذي يسعى نصر حامد الوصول إليه فهو

يريد تحقيق الفهم الموضوعي للإسلام وبذلك يتحقق الوعي العلمي به وهو يصرح بذلك في كتابه مفهوم النص بقوله: «إنّ الهدف الثاني لهذه الدراسة يتمثل في محاولة تحديد مفهوم "موضوعي" للإسلام، مفهوم يتجاوز الطروح الأيديولوجية من القوى الاجتماعية والسياسية المختلفة في الواقع العربي الإسلامي»[16]، فهو يعد العلمية مسلكا للابتعاد عن السلفية النفعية.

وتتضح العلمية حسب نصر حامد أكثر بالوقوف على ما اشترطه زيد في قراءة الوحي، حيث من بين الشروط الابتعاد عن الإجابات الجاهزة، والاستمرار في طرح الأسئلة التي تضيف الجديد إلى البحث والفهم، وحتى في حالة وجود إجابات متعددة جاهزة فعلى المفكر أن يختار الدقيقة منها والقريبة إلى العقل، وسيكون من باب القصور التوقف عند هذا الشرح المبسط لذا علينا في العنصر الموالي تحديد الأسس التي تقوم عليها العلمية حسب نصر.

3. الأسس التي تنهض عليها القراءة العلمية: حتى يؤسس نصر حامد أبو زيد لتحقيق وعي علمي لفهم الوحي القرآني أخذ يبين غياب واضح للعلمية في الخطاب الديني المعاصر المتمثل في الاتجاه السلفي المسيطر على الفكر الديني، فكان أن اشترط مجموعة من العناصر تتأسس عليها القراءة العلمية للوحي القرآني وهي كالآتي:

1.4 الإعلاء من شأن العقل: ترتبط القراءات الحداثية بإعمال العقل وأبو زيد ممن رفعوه لدرجة اعتباره «الأصل والبدء السلطة التي يتأسس عليها الوحي ذاته، العقل لا بما هو آلية ذهنية صورية جدلية، بل ما هو فعالية اجتماعية تاريخية متحركة، هذه السلطة قابلة للخطأ، لكنها بنفس الدرجة قادرة على تصويب أخطائها والأهم من ذلك أنها وسيلتنا الوحيدة للفهم، فهم العالم والواقع وأنفسنا والنصوص»[17]، يتضح من هذا أنّ العقل حسب نصر حامد هو الركيزة المحورية التي يعتمد عليها في فهم الخطاب

القرآني ولا وجود لغيره في فهمه بالإضافة إلى أنّه يحقق الوصول إلى المقاصد الصحيحة للوحي ويصوب الخاطئ منها. كما يعتبر "نصر" في موضع آخر أنّ العقل«هو السبيل الوحيد لـ "العلم" الذي هو بدوره الأساس المتين الذي تتأسس عليه الهداية»[18]، فهو يربط العقل بالهداية، كما يدعو إلى فتح باب الاجتهاد وعدم التمسك بما قدمه الأسلاف باستخدام العقل.

بينما يرد "الريسبوني" على نصر وغيره من المفكرين الحداثيين الذين يسلطون العقل على فهم الوحي القرآني وأن لا شيء غيره يؤدي إلى الفهم واصفا هذا بقوله: «إن تسليط العقل على الوحي، وإيثاره بالتقديم والتعظيم، إلى حد الصنمية، والتأليه، والاسترقاق الفكري»[19]، ولم يتوقف عند هذا الوصف بل أخذ يعدد نتائج تأليه العقل وتسليطه على الوحي والتي من بينها: نفي الغيبيات، وجعل القرآن وغيره من الكتب المقدسة في مرتبة واحدة، ونفي كل الآيات التي تتنافى مع تسليط العقل.

كما أنّ محاولة "نصر" الانتقال من فهم الوحي من اعتباره نصا إلى اعتباره خطابا هذا في حد ذاته نقلة نوعية من القراءة السلفية إلى العلمية، سعيا منه في تحرير العقل من الأفكار التي يعتبرها أصحاب المنهج السلفي من التصورات الثابتة التي لا يمكن مناقشتها أو الجدل معها، فما وجده زيد أنّ علماء الأصول والمتكلمين تتناقض أحكامهم المتوصل إليها، فنذكر على سبيل المثال وجد في الآية التي يقول فيها الله تعالى: ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (85)** ﴾[20]، حيث يجعلها السيوطي من الآيات المدنية من خلال ترجيحه لرواية ابن مسعود، ولكن الزركشي يجعلها من الآيات التي نزلت مرتين.

بيد أنّ نصر حامد يقرر مكية الآية وينتقد ما قدمه الزركشي قائلا: «إن القول بنزول الآية مرتين قول قد يبدو له وجاهته من منظور عالم القرآن القديم الذي يفسر ذلك على أساس "التعظيم" و"التذكير"، ولكنه من منظور الدرس العلمي له

خطره على قضية المكي والمدني وقضية أسباب النزول ذاتهما»[21]، وينتقد رأي السيوطي أيضا من خلال ربطه للنص بالواقع متجنبا الترجيح بين الروايات العديدة.

2.4 اعتبار النص القرآني نصا لغويا: يعتبر نصر ما تقدمه القراءة السلفية هو مجرد «تصور يعزل النص عن سياق ظروفه الموضوعية التاريخية، بحيث يتباعد به عن طبيعته الأصلية بوصفه نصا لغويا، ويحوله إلى شيء له قداسته بوصفه شيئا»[22]، ولهذا فهو يدعو إلى اتباع المنهج العلمي ولكن شريطة اعتبار النص القرآني نصا لغويا تطبق عليه المناهج التي تقرأ بها النصوص الأخرى، ولكنه بهذه المساواة في تطبيق المناهج تجعله يضع الوحي القرآني والنص البشري في مرتبة واحدة رغم تصريحه في كذا من موضع بقداسة النص القرآني ومصدره الإلهي، وهو من خلال هذا يبتعد عن البعد الديني للوحي ويحاول ربطه بالواقع ويدرسه من خلال لغته أي من خلال النظام الثقافي الذي تشكل فيه.

وهو يشير في موضع آخر مركزا على مصدرية النص القرآني وقداسته التي لا تشكل عائقا في إمكانية اعتبار أن هذا النص لغوي، وعليه فإن دراسة الوحي القرآني خارج اللغة لا يحقق لنا شيئا من العلمية وسيكون حتما بعيدا عنها ، وهذا ما ينتقده فيه علي حرب حيث يرى أنّ الإيمان بالمصدري الإلهي وتطبيق المنهج العلمي لا يمكن لوجودهما معا عند تأويل الخطاب القرآني.

وفي سياق ما تقدم ذكره نؤكد أنه بدلا من هذا الفصل والقطع بين المصدر الإلهي والمنهج العلمي «يطرح أبو زيد وجهة نظره التي تجمع بين الإيمان بالمصدر الإلهي للنص وبين إمكان خضوعه للدرس العلمي طالما تجسد عباءة اللغة البشرية. وهو بذلك يجمع بين الإيمان والعقل معطياً السيادة والأولوية للعقل، فما المشكلة في هذا الطرح!»[23]، فهو من خلال هذا الطرح يريد أن يفتح باب الاجتهاد ويعطي لكلا من العقل والإيمان حقه في نفس الوقت.

كما أنّه بهذا الشرط يريد أن يحقق الدراسة الأدبية كمنهج علمي في فهم الوحي القرآني فيقول: «إن البحث عن مفهوم النص ليس في حقيقته إلاّ بحثا عن ماهية القرآن وطبيعته بوصفه نصا لغويا، وهو بحث يتناول القرآن من حيث هو كتاب العربية الأكبر، وأثرها الأدبي الخالد»[24]، هذا التصريح كان استجابة لأستاذه أمين خولي الذي دعى إلى الدراسة الأدبية ويصرح بذلك في قوله: «تقع هذه الدراسة في صميم الدرس الأدبي، وليست الدعوة إلى درس القرآن بوصفه نصا إلاّ استجابة لدعوة قديمة شاءت لها الظروف أن تمر دون أن تتحقق، إنها دعوة الشيخ أمين خولي»[25]، فالقراءة الأدبية حسب نصر تدخل في صميم القراءة العلمية التي تبتعد عن الأغراض الأيديولوجية التي كانت سائدة في الفكر الديني المعاصر.

ومن خلال علاقة اللغة بالثقافة التي تشكل فيها الوحي القرآني يوضح لنا مرزوق العمري موقف نصر أنّ فهم النص لا يكون إلا من خلال القوانين اللغوية التي تشكل بها فهو يجب أن يفهم حسب نصر شأنه شأن سائر النصوص الأخرى، وعليه يتأول نصر الآيات الأولى من سورة العلق وهي خاصة بالموقف الاتصالي الأول مستخدما المجالات الدلالية.

يتأول نصر الآيات سورة العلق قائلا: «وصف الرب بأنه "الذي خلق" ثم التأكيد بالتكرار لفعل الخلق "خلق الإنسان من علق" ينقل هذه المفردات السابقة من مجالها الدلالي المألوف في الصفات الإنسانية إلى مجال دلالي جديد بالنسبة لمحمد وبالنسبة للثقافة»[26] ، وهنا يحاول "نصر" أن يبين استجابة الوحي القرآني لما كان يبحث عنه الرسول، وبالتالي ربط النص بالواقع والثقافة.

3.4 التصور الثقافي للوحي القرآني: يعتبر نصر حامد الوحي مفهوما محوريا في الثقافة التي تشكل فيها، حيث لا يمكن فهمه إلا في إطار البيئة الثقافية التي تشكل فيها، وذلك باعتبار أن القرآن الكريم نص لغوي تشكل بتلك اللغة المعبرة عن الثقافة،

فهو يراه عملية اتصال ولكي يثبت صدق رأيه يربطه بالشعر مستدلا بقول علقمة الفحل وهو يصف ذكر النعام حين عودته قلقا على صغار فيقول:

يوحي إليها بأنقاض ونقنقة كما تراطن في أفدانها الروم[27].

ويستطرد بالحديث إلى أبعد من ذلك حين يشبه وحي الله إلى سيدنا زكريا على السلام والسيدة مريم في كون أن الرسالة في العملية الاتصالية لا يفهمها إلا المرسل والمستقبل، ثم يصل إلى نتيجة مفادها انّ هذا النوع من الاتصال كان بين طرفين ينتميان إلى نفس المرتبة الوجودية، وينضاف إلى هذا تفسيره للاتصال بين البشر والجن وهما لا ينتميان إلى نفس المرتبة الوجودية وعلى أساسها يفسر ظاهرة النبوة؛ يقول بهذا الصدد: «لقد ظل هذا التصور –تصور اتصال البشر بعالم الجن أو العوالم الأخرى بصفة عامة– جزءاً من المفاهيم المستقرة في الثقافة العربية الإسلامية، وعلى أساسه أمكن تفسير ظاهرة النبوة ذاتها من خلال نظرية الخيال عند الفلاسفة والمتصوفة»[28]، وحتى يثبت نصر صدق الوحي أراد أن يأتي بدليل من داخل البيئة العربية رغم أنّ الوحي لا يحتاج لدليل على صدقه فهو بذلك يتعارض مع دعوته للوعي العلمي بالخطاب القرآني.

ولم يكتف أبو زيد بهذا التحليل لمفهوم الوحي وربطه بالثقافة بل توصل إلى نتيجة مفادها أنّ «التصور الذي يطرحه النص عن نفسه، من خلال الثقافة ونظامها اللغوي، يصبح التركيز على مصدر النص وقائله فقط إهدارا لطبيعة النص ذاته، وإهدارا لوظيفته في الواقع، وهو ما حدث في الفكر الديني الذي سيطر على التراث والذي مازال فاعلا في ثقافتنا إلى اليوم»[29]، وعليه توجه اهتمام نصر إلى المتلقي الأول للوحي القرآني.

وإذا كان اهتمامنا قد انصرف في الفقرة السابقة إلى ربط نصر الوحي القرآني بالشعر من خلال اعتبار كلاهما اتصال يحدث بين طرفين، فإنه من باب

القصور عدم الإشارة إلى مقاربة نصر الوحي المحمدي مع الوحي الإلهي في الأمم السابقة، فكان أن عرض لطرائق الوحي الثلاثة لقوله تعالى: ﴿ **وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ** ﴾[30]، مقارنا بينها مستنتجا أنها عمليات اتصال فيها مرسل ومستقبل ورسالة، وهو يريد من خلال هذا أن يثبت كون مفهوم الوحي ليس مغايرا للاتصالات المألوفة في الثقافة والسابقة عليه.

4.4 ضرورة مراعاة السياق: أول ما يلفت الانتباه في هذا الشرط هو مفهوم السياق الذي يعنى به «الملابسات المختلفة التي وجد في إطارها النص، وأصبحت تشكل أبعادا له، وبالنسبة للنص الديني هي الظروف والملابسات التي أنزل النص متزامنا معها، وهو أمر مهم في فهم النص مثل أسباب النزول التي كان علماء التفسير يأخذون بها في مجال التفسير لبيان المعنى، ويعتمدها الأصوليون والفقهاء لبيان الأحكام»[31]، وعليه يبدو أن للسياق أهمية كبيرة في استخراج دلالة النص وفهمه، وإهداره يجعل من ذلك الفهم فهما نفعيا أو فهما قد يميل إلى قراءة سابقة وهذا ما يعيبه نصر في الخطاب الديني المعاصر.

وبالموازاة مع هذا يأخذ السياق موقعا هاما في فهم الخطاب الديني عموما والوحي القرآني خاصة، حيث يعتبر مرزوق العمري أنّ «طرح الدكتور نصر حامد أبو زيد لمسألة السياق الثقافي وعدم احترامه في الخطاب الديني، يهدف من ورائه إلى بيان تأثير الثقافة في النص ولذلك نجده يطرح على مستوى آخر موضوع الوحي من حيث إمكانية شروطه، وماهيته...وهذا كلام خطير جدا، والمتتبع لكلامه يجده قد وقع في تناقضات صارخة تتنافى ودعواه بتكوين وعي علمي»[32]، فالابتعاد عن البعد الغيبي للوحي القرآني يستوجب الاعتماد على السياق ومن تم تحقيق الفهم العلمي.

ومرد هذا الإهدار للسياق في الفكر الديني المعاصر عند نصر حامد أبو زيد بقوله: «ويرتد هذا التجاهل في جانب منه إلى عدم الوعي بقوانين تشكل النصوص الدينية، كما يرتد في جانب آخر إلى اعتبار النصوص الدينية نصوصا مفارقة لسواها من النصوص اللغوية مفارقة تامة أو شبه تامة»[33]، وهو من خلال ذكره لهذين السببين يريد أن ينتهي بتقرير حقيقة مهمة بالنسبة له ألا وهي الدعوة لتأسيس الوعي العلمي وبالتالي الخروج والابتعاد هن التقوقع في الماضي أو ما قدمه السلف؛ ومن دون شك فإن نصر يربط إهدار السياق بأسباب متعلقة أكثر بقوانين اللغة التي تتجسد من خلالها الثقافة، أضف إلى ذلك أن اعتبار الوحي كغيره من الخطابات اللغوية للوصول إلى نتيجة حتمية وهي أن النص منتج ثقافي، والسبب الثاني هو المحافظة على الفكر والفهم الذي قدمه السلف لدرجة التقديس والذي يعتبره فكرا رجعيا.

والسياق حسب نصر متعدد وليس بواحد خاصة بتعاملنا مع النص على أساس سيميوطيقي، وبهذا فهو يحد من التعددية ويكتفي «بالتوقف عند مستويات السياق المشتركة والعامة جداً، مثل السياق الاجتماعي، والسياق الخارجي (=سياق التخاطب)، والسياق الداخلي (= علاقات الأجزاء) والسياق اللغوي (تركيب الجملة والعلاقات بين الجمل)، وأخيراً سياق القراءة أو سياق التأويل»[34]، هذه المستويات السالفة الذكر يعتبرها نصر تتعلق بكل النصوص اللغوية والتي من بينها النص الأدبي الذي يمثل أعلى السياقات تعقيدا.

ويتابع نصر حديثه عن السياقات العامة ليبين مقصوده من ذلك قائلا: «إن تركيزنا على مستويات السياق العامة جداً في النصوص اللغوية يستهدف في الحقيقة تقديم محاولة لاكتشاف مستويات السياق الخاصة بالنص القرآني»[35] ، فهو يعتبرها سياقات مشتركة بين كل النصوص اللغوية، بمعنى أنّ هناك ارتباط بين الخطاب

القرآني وغيره من الخطابات الأخرى ألا هو الانتماء إلى نفس الثقافة هذا من جهة وأنّ كلاهما خطابات لغوية تعبر عن الثقافة التي تشكلت فيها قوانين هذه اللغة.

ولكي نخصص بمزيد من الوضوح حول هذه المسألة نستدل بما قدمه نصر بخصوص العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فهو يصف لنا مدى تمسك القراءة السلفية بهذا الجانب والتي قد تبعده عن مقاصد الشريعة، إلا أن نصر يوضح موقفه من كل هذا قائلا: «والتمسك بعموم اللفظ وإهدار خصوص السبب في كل نصوص القرآن من شأنه أن يؤدي إل ىنتائج يصعب أن يسلّم بها الفكر الديني، إن أخطر هذه النتائج للتمسك بعموم اللفظ مع إهدار خصوص السبب أنّه يؤدي إلى إهدار حكمة التدرج بالتشريع في قضايا الحلال والحرام خاصة في مجال الأشربة والأطعمة»[36] ، وهو يستدل على رأيه هذا بمسألة تحريم الخمر والتدرج في التشريع في تحريم الخمر.

وبخصوص ما سبق ذكره في الفقرة السالفة يعتبر سلمان السلطاني رأي نصر بخصوص هذه القاعدة سوء فهم لها خاصة بربطه خصوص السبب بعدم مراعاة السياق التاريخي، موضحا ذلك بقوله: «اعتبار عموم اللفظ على حساب خصوص السبب، ليس معناه أخذ الدلالة من دون مراعاة للظروف المحيطة بأسباب الآية، فهذا فهم بنيوي، فلا يمكن فهم النص من غير حاجة لأدوات خارج نصية»[37]، وعليه لقد كان السلف أشد حرصا بأسباب النزول ومقتضيات الكلام وربط الآية السابقة باللاحقة حتى يتوصل إلى الفهم الصحيح للوحي القرآني.

5. خاتمة:

بعد هذه الجولة الخفيفة في تأويل الخطاب القرآني عند نصر حامد أبو زيد، من خلال التركيز على انتقاله من السلفية إلى العلمية محاولين الإلماء بأهم الجزئيات المتعلقة بصميم البحث نخلص إلى ما يلي:

– رغم اتساع الدراسات القائمة على فهم وقراءة الخطاب القرآني منذ عهد الرسول؛ أي منذ زمن التنزيل إلى مختلف التفاسير التي قدمها التراثيون، إلاّ أنه لا يمكننا أن نغفل الدراسات الحديثة في هذا المجال والتي من بينها ما قدمه نصر حامد أبو زيد، حتى نتمكن من عقد مقابلة بينها وبين نظيرتها السلفية ومعرفة مواطن الخلل التي وقع فيها نصر، وما الشيء الجديد الذي قدمه لنا من جراء تجربته الهرمنيوطيقية.

– محاولة نصر الكشف عن البعد المفقود في التراث وهو مفهوم النص من خلال تطبيق تحليل الخطاب عليه حتى تتحقق العلمية.

– يستند نصر إلى المفاهيم والمصطلحات التي انطلقت منها القراءة السلفية متجها إلى تحقيق الوعي العلمي وفهم الخطاب القرآني فهما عليما يتجاوز به القراءات النفعية الأيديولوجية وهذا ما أكده علي حرب معنونا مقاله بـ: نصر يناهض الأصولية ويقف على أرضها.

– يريد نصر من خلال انتقاله من السلفية إلى العلمية تأويل التنزيل الحكيم باعتباره خطابا لا نصا.

المراجع:

[1] – أدونيس: علي أحمد إسبر المعروف باسم أدونيس، شاعر سوري، ولد في 1 يانير 1976 مؤسس لمجلة مواقف، نال العديد من الجوائز العالمية وألقاب التكريم، من بين أهم مؤلفاته: الثابت والمتحول بحث في الإبداع والاتباع عند العرب، الصوفية والسريالية، والنص القرآني وآفاق الكتابة.

[2] – أدونيس، الثابت والمتحول –بحث في الإبداع والإتباع عند العرب–، ج1، دار الساقي، بيروت، ط7، 1994، ص: 19

[3] – أحميدة النيفر: كاتب ومفكر وأستاذ جامعي تونسي، متخصص في أصول الدين والفكر الإسلامي المعاصر، ولد في أول يناير 1942 في العاصمة تونس، وهو من مؤسسي حركة

النهضة التونسية، ولديه مؤلفات عديدة تهتم عموما بسؤال التجديد من بينها: مختصر تفسير المراغي، التفاسير القرآنية الحديثة قراءة في المنهج، النص الديني والتراث الإسلامي.

[4] – أحميدة النيفر، الإنسان والقرآن وجها لوجه (التفاسير القرآنية المعاصرة) –قراءة في المنهج–، دار الفكر، سوريا، ط1، 2000، ص: 17.

[5] – محمد حسين الذهبي: وزير الأوقاف المصري الأسبق، ولد يوم 19 أكتوبر 1915، في محافظة كفر الشيخ، حصل الذهبي على الدرجة العالمية بدرجة أستاذ في علوم القرآن من كلية أصول الدين في جامعة الأزهر وذلك عن رسالته التفسير والمفسرون، ومن بين أهم مؤلفاته: الوحي والقرآن الكريم، الاتجاهات المنحرفة في تفسير القرآن الكريم دوافعها ودفعها، تفسير ابن عربي للقرآن حقيقته وخطره وغيرها.

[6] – حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، ج2، مكتبة وهبة، القاهرة، دط، دت، ص: 115.

[7] – محمد عابد الجابري: مفكر وفيلسوف عربي من المغرب، ولد بتاريخ 27 ديسمبر 1935، تحصل على جائزة ابن رشد للفكر الحر سنة 2008، كرمته اليونسكو لكونه أحد أكبر المتخصصين في ابن رشد، من أهم أعماله: تكوين العقل العربي، مدخل إلى القرآن، فهم القرآن الحكيم –التفسير الواضح حسب ترتيب النزول–، التراث والحداثة: دراسات ومناقشات، وغيرها، توفي يوم 03 مايو 2010.

[8] – محمد عابد الجابري، نحن والتراث، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط6، 1993، ص: 12.

[9] – نصرحامد أبو زيد، مفهوم النص، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط7، 2008،ص : 14.

[10] – نصر حامد أبو زيد، التفكير في زمن التكفير –ضد الجهل والزيف والخرافة–، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط2، 1995، ص: 20.

[11] – اليامين بن تومي: باحث واستاذ تحليل الخطاب والنظرية النقدية والسرديات في جامعة سطيف، ولد في 17 فبراير 1976، تنوعت نتاجاته بين روائية ونقدية سردية، من بينها: الزاوية المنسية، أعراض الثقافة، مرجعيات القراءة والتأويل عند نصر حامد أبو زيد، و أعراض الثقافة.

[12] – اليامين بن تومي، مرجعيات القراءة والتأويل عند نصر حامد أبو زيد، منسورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2011، ص: 237–238.

[13] – سعيد النكر، قراءة النص القرآني الأيديولوجيا والمنهج، عالم الكتب الحديث، الأردن ط1، 2014، ص: 94.

[14] – محمد عابد الجابري، التراث والحداثة –دراسات ومناقشات–، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، سبتمبر، 1991، ص: 46.

[15] – نفسه، ص: 47.

[16] – نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص، ص: 19–20.

[17] – نصر حامد أبو زيد، نقد الخطاب الديني، سينا للنشر، مصر، ط2، 1994، ص: 131.

[18] – نصر حامد أبو زيد، دوائر الخوف قراءة في خطاب المرأة، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط3، 2004، ص : 06

[19] – قطب الريسبوني، النص القرآني من تهافت القراءة إلى أفق التدبر، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، ط1، 2010، ص: 283.

[20] – سورة الإسراء، الآية : 85.

[21] – نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص، ص: 83.

[22] – نفسه، ص: 12.

[23] – مجدي عز الدين حسن، المنهج التأويلي عند نصر حامد أبو زيد، أبحاث مؤتمر التأويلية ونصر حامد أبو زيد، دار العين، الإسكندرية، 2015، ص: 134.

[24] – نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص، ص: 10.

[25] – نفسه، ص : 19.

[26] – نفسه، ص: 78.

[27] – نفسه، ص: 32.

[28]– نفسه، ص: 36.

[29] – نفسه، ص: 57.

[30] – سورة الشورى، الآيتان : 51–52.

[31] مرزوق العمري، إشكالية تاريخية النص الديني –في الخطاب الحداثي العربي المعاصر–، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2012

[32] – نفسه، ص: 189.

[33] – نصر حامد أبو زيد، النص، السلطة، الحقيقة –الفكر الديني بين إرادة المعرفة وإرادة الهيمنة–، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 1995، ص: 91

[34] – نفسه، ص: 96.

[35] – نفسه، ص: 97.

[36] – نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص، ص: 104.

[37] – حكيم سلمان السلطاني، القراءة الحداثية للنص القرآني –في ضوء تحليل الخطاب–، دار كنوز المعرفة، الأردن، ط1، 2018، ص: 172.